حول الانتفاع بالعامية
في تجديد اللغة العربية

شكرا في البدء لفتح باب المناقشة حول الرأي الذي أبدته الأستاذة مديحة دوس في مقالها المنشور يوم ٢٧ إبريل تحت عنوان "تجديد اللغة العربية : هل يعتمد على دراسة اللهجات العامية ؟"

وردا على التساؤل الذي أثاره العنوان ، سواء كان هذا العنوان من اختيار الكاتبة أو من اختيار المحرر ، فإنني أقول إن تجديد اللغة العربية لا يعتمد على دراسة اللهجات العامية. وأرجو ألا أكون قد اقتربت من المبالغة إذا ما قلت بل إنه لا علاقة على الإطلاق لهذا التجديد باللهجات العامية ، سوى في مجال واحد وهو مجال المفردات ، والذي سنتعرض له فيما بعد في هذا الرد.

أما أسباب هذه الإجابة فتتلخص في عدة نقاط أوجزها فيما يلي:

أولاً : أننا لسنا بحاجة إلى دراسة اللهجات العامية بهدف "استنباط النظرية منها ، كما ذكرت الكاتبة ، أو للاستفادة بها في تطوير النحو العربي كما ذكر المحرر في تعليقه ، وذلك نظرا لوجود نحو بالفعل للغة العربية منذ مئات السنين. فما نحن بصدده ليس هو محاولة إيجاد نحو لا وجود له ، أو محاولة وضع قواعد للغة أو للهجة لا توجد لها قواعد مكتوبة. ومن ثم فإن أية محاولة لإيجاد ما هو موجود بالفعل تدخل في إطار إضاعة الوقت والجهد.

ثانياً : أنه لا توجد علاقة بين ما يسمى بـ "تجديد اللغة العربية" ، ودراسة اللهجات العامية، إلا إذا كان المقصود بهذا "التجديد" هو إحلال اللهجات العامية محل اللغة العربية. ولما كان المحرر ينفي أن يكون هذا هو هدف الكاتبة ، إذن فلا علاقة بين الأمرين. أما إذا كان الهدف – سواء المعلن أو غير المعلن – هو "اختيار" إحدى هذه اللهجات لتحل محل اللغة العربية الفصحى أو العربية المكتوبة الحديثة كما يطلق عليها بعض اللغويين ، فهذا أمر آخر يحتاج إلى وقفة أخرى وإلى تعليق آخر.

ثالثها : لقد قوضت الكاتبة بنفسها ومن حيث لا تدري أساب دعوتها فالمثال الذي

ذكرته من العامية وهو "ما عرفش" (وصحته "ما عارفش" وفقا لوصفها إياه بأنه اسم فاعل) في مقابل "مش عارف" القاهرية ، لدليل على أننا لا يمكن أن ندرس اللهجات لاستنباط قواعد الفصحى !! فهل نقول للناس في القاهرة استخدموا "ماعارفش" بدلا من "مش عارف" ، أم نقول للناس في الصعيد استخدموا "مش عارف" ، بدلا من "ما عارفش" أو بمعنى أصح بدلا من "ما خابرش" ؟ وماذا عن قول بعض الفتيات والسيدات ربما دلالا أو تدللا "موش أعرف" ؟! وهل نختار للناس واحدة من تلك العبارات العامية بدلا من "لا أعرف" أو "لست أعرف" التي يستطيع أن يفهمها نحو مائة وخمسين مليون عربي[1] وملايين المسلمين من غير العرب في جميع أنحاء العالم ؟ ولم ؟!

رابعا : لو أخذنا واحدة من هذه الصيغ العامية وحاولنا فرضها على الناس – وهذا مستحيل عمليا – أليس هذا هو النحو المعياري normative grammar أو النحو الفرضي prescriptive grammar الذي تدينه الكاتبة ؟

بقيت عدة تعليقات مختصرة على بعض تساؤلات الكاتبة وأقوالها ، وذلك قبل أن أقدِّم بعض الاقتراحات الخاصة بـ "تجديد" النحو العربي أو بالأحرى "تبسيط" تعليمه للطلاب في المدارس والجامعات.

تتعلق الملاحظة الأولى بتساؤل الكاتبة : لماذا نقول إن العامية لهجة وليست لغة ؟ والإجابة هي أننا لو أطلقنا على كل لهجة اسم لغة لمجرد وجود بعض الاختلافات على أي مستوى لغوي (الصوتي ، الصرفي ، النحوي ، الدلالي) لوقعنا في خطأ كبير يتمثل في تجاهل الأصل المشترك لهذه اللهجات ، وكأنها لا علاقة لها بعضها بالبعض ، وحينئذ يكون الضرر الواقع أكبر كثيرا من الفائدة إن كان ثمة فائدة. هذا مع تسليمنا بأن للهجة قواعد – وإن كانت غير مكتوبة في الأغلب – وهو ما ذهبت إليه الكاتبة وما أتفق معها فيه.

وتتعلق الملاحظة الثانية بدعوة الكاتبة إلى دراسة جميع المستويات اللغوية ، وإشادتها بمحاولة الأستاذ الدكتور السعيد بدوي ، فأقول إنني أتفق معها في الدعوة في حد ذاتها ،

(١) كان هذا هو عدد العرب في وقت كتابة المقال. وقد وصل هذا العدد إلى نحو ٢٥٠ مليونا على الأقل الآن.

obeikandl.com

وإن كنت أخالفها الرأي في الهدف من ورائها. فإذا كان الهدف هو استنباط القواعد من العامية ، فلا حاجة بنا إلى هذا كما سبق أن أسلفنا ، بل إنه أمر مستحيل عمليا لتعدد العاميات في القطر الواحد ، ناهيك عن الدول العربية مجتمعة. وما ينطبق على النحو ينطبق على الصرف وينطبق على الأصوات. أما إذا كان الهدف هو ملاحظة الكلمات أو المفردات lexical items التي دخلت إلى لغتنا العربية أو دراسة التطور الدلالي للألفاظ فلا بأس. وفي هذا الصدد أشيد بدور مجمع اللغة العربية بالقاهرة وبقاموسه **المعجم الوسيط** الذي يضم مئات الألفاظ المعربة، أي التي غيرها العرب بالنقص ، أو الزيادة ، أو القلب (مثل كلمة الإسطبل) ، والألفاظ الدخيلة ، أي التي دخلت العربية دون تغيير (مثل الأكسيجين ، والتليفون). والألفاظ المجمعية أي التي أقرها مجمع اللغة العربية (مثل الأسطرلاب) ، والألفاظ المحدثة أي التي استعملها المحدثون في العصر الحديث ، وشاعت في لغة الحياة العامة (مثل الشرنقة).

والآن انتقل إلى ما أراه مساهمة في حل أزمة اللغة العربية :

أولاً : ما نحن بحاجة ماسة إليه حقا وفعلا هو تقديم النحو العربي بصورة استنتاجية أو استدلالية deductive وليس بصورة استقرائية inductive بمعنى أن الطالب يجب أن يقرأ نصا يرى فيه كيف يتم استخدام اللغة العربية المعاصرة بصورة سليمة ، وليكن من واقع كتابات كبار الأدباء والكتاب ، ثم ينتقل إلى استنتاج القاعدة ، وليس العكس. ولقد عفا الزمن على كتب النحو التي تقدم القاعدة أولا ثم تعطي الدارسين بعض التمرينات أو ما يسمى بـ"التطبيقات" لحلها ! ومن الأمور المحمودة لوزارة التعليم أنها أخذت منذ فترة تنهج هذا النهج في كتب النحو المقررة على الطلاب.

ثانيا : نحن بحاجة إلى عدم الإغراق في التفصيلات فيما يتعلق بالنحو العربي ، فهذه نتركها للمتخصصين وبعضها نتركه للدارسين في الدراسات العليا. ولكن هناك أمورا أو "قواعد" ينبغي أن يلم بها كل من يريد أن يستخدم اللغة استخداما سليما. وهنا أذكر واقعة حقيقية شهدتها بنفسي عندما عملت مترجما محررا في إحدى الصحف اليومية ، وكان أحد المترجمين يكثر من الأخطاء النحوية ؛ فما كان من رئيس القسم إلا أن كتب له صفحة واحدة تضم أهم قواعد اللغة العربية ووضعها المترجم تحت "بنورة" مكتبه. ومن يومها اختفت أخطاؤه أو كادت.

ثالثا : نحن في حاجة أيضا إلى مزيد من "التعرض" للغة العربية في مدارسنا وجامعاتنا ووسائل إعلامنا بل وفي بيوتنا. ونتائج هذا التعرض المكثف لابد من أن تؤتي أكلها ولو بعد حين.

وأخيرا ، أؤكد أن لغتنا العربية ليست بحاجة إلى "تجديد" و "تطوير" أو "تحديث" أو أشياء من هذا القبيل ، فاللغات تتجدد وتتطور من تلقاء نفسها ، ولا يستطيع أحد أن يوقف هذا التطور الطبيعي. ولكن ما نحن بحاجة ماسة إليه فعلا هو أن نعرف لغتنا عن طريق المزيد من التعرض لها ، وعن طريق النظر إلى الأهم فالمهم في نحوها وصرفها ، وأيضا عن طريق دراستها بصورة استنتاجية وليس بصورة استقرائية .

صفحة «الفكر الثقافي»
(٢٥/ ٥/ ١٩٩٠)

obeikandl.com